# الفصل الأول

# الديمقراطية في التربية

## الديمقراطية في التربية

الديمقراطية كمصطلح برز ليعبر عن مفهوم سياسي لالغاء الطبقية التي كانت تميز مدينة اثينا في القرن الخامس قبل الميلاد، لأن الطبقية التي كانت مفروضة على الشعب الاثيني اعاقت تقدمه وجعلته فريسة لجارتها اسبرطة. كذلك قسوة اثينا على العلماء والفلاسفة وحكم الطبقية عليهم بالموت في اغلب الاحيان كما حدث لسقراط العظيم (كما كانوا يطلقون عليه) عجل من انتهاء دور هذه المدينة العظيمة بالاستمرار في العطاء. صحيح ان البرلمان الاثيني كان يضم النخبة (طبقة الذهب) وهي مجموعة من الأعيان وكبار رجالات السياسة في ذلك العصر، الا ان ذلك لم يمنع تراكم التناقضات بين طبقات المجتمع الاخرى، ما ولد الثورات المتلاحقة التي عصفت بكيان الدولة المسالمة. لذلك اعاد الفلاسفة النظر في هذا التمييز الطبقي الذي انعكس بدوره على التعليم فبرز مصطلح حكم الشعب Democracy للمرة الأولى ليعبر عن اشراك الشعب الحقيقي في مناقشة المشكلات الملحة، وكان الناس يجتمعون في العام أربعين مرة ليناقشوا كل القضايا السياسية المهمة مناقشة مباشرة، ويصدر فيها قراراته. لكنها مع ذلك لم تكن لِتُمثَلَ حكم الشعب حسب رأي بعض المفكرين الذين رأوا ان من أسَّس النظامَ الديمقراطي هم فئةٌ قليلةٌ من الناس، وهم الذين قرروا من الذي يستحق أن يدخل في مسمى الشعب الحاكم ومن الذي لا يستحق، فاستثنوا النساء، والرقيق، وكل من كان من أصل غير أثيني مهما طال مكوثُهُ فيها؛ وعليه فلم يكن الذين لهم حق المشاركة السياسية حسب هؤلاء المطلعين إلا نسبة ضئيلة من المواطنين؛ وكان يكفي لاعتبار الاجتماع منعقداً أن يحضره ستة آلاف من مجموع ما يقدر بست وثلاثين ألف عضو، أي إن القرارات المتخذة فيه لم تكن قرارات تلك الفئة كلها التي أعطيت حق الحكم. كما كانت مدة الاجتماع لا تتجاوز عشر ساعات؛ فلم يكن بإمكان الناس جميعاً أن يشاركوا في المداولات، وإنما كان الذي يستأثر بالكلام بعض قادتهم، وكانت البقية تابعة لهم(1). ولكن مهما كان الأمر فإن المصطلح ظهر الى حيز الوجود وكان لا بد من سبر اغواره لفهم ابعاده.

ولما كانت السياسة العامة لأي مجتمع تقوم على اكتاف ابنائه، فإن الالتفات الى مطلب هؤلاء الابناء اصبح امراً حتمياً، واخذ هذا المفهوم في التعمق والتوسع منذ بعثت الديمقراطية مرة ثانية في القرن الثامن عشر في أوروبا، حيث اصبح من المتعذر ان تكون ديمقراطية مثل ديمقراطية اثينا بسبب الازدياد الكبير في عدد السكان، وصعوبة اجتماعهم. وتَغَيَرَ مفهوم الديمقراطية المباشرة أي حكم الشعب في العصر الاثيني الى الديمقراطية

الحديثة او الديمقراطية غير المباشرة، أو الديمقراطية التمثيلية، أي ديمقراطية يختار فيها الشعب فئة قليلة منه تكون ممثلة له وحاكمة باسمه. وهنا نريد ان نتابع تطور المفهوم وانعكاساته التربوية اي على العملية التربوية برمتها.

فمنذ التفكير بضرورة حفظ التراث الانساني من الانقراض في العصر اليوناني القديم تقدم فلاسفة العصر مثل سقراط وافلاطون بتفنيط العلوم الانسانية وتقسيمها الى علوم عليا واخرى متوسطة وثالثة منخضفة المستوى وذلك وفق ما يناسب الطبقات التي كانت هي مكونات المجتمع الاساسية وهي الذهب والفضة والنحاس. او الحكام والجنود والتجار والحاربون ثم العبيد؛ وارسى هؤلاء مبادىء الفلسفة المثالية التي اعلت من القوى الروحية لدى الفرد مع التركيز على الجانب العقلي. وبالرغم من انتشار المبادىء الديمقراطية في العصر الاثيني الا ان الطبقية ما زال معمولا بها في المجتمع، وعليه فلم يكن الذين لهم حق المشاركة السياسية إلا نسبة ضئيلة من المواطنين(2) وبالتالي الذي كان يتمتع بالتعليم الراقي آنذاك والمتمثل بالأداب والموسيقى والتاريخ القديم والحديث والعلوم التطبيقية هي فئة قليلة من المجتمع.

وبقي الحال على ذلك في العصور الوسطى حيث انتشرت العلوم الثلاثية tritium وهي النحو والبلاغة والمنطق، والعلوم الرباعية quadrivium، وهي الحساب والموسيقى والهندسة والفلك، وبقيت هذه العلوم حكراً على فئة من الناس دون غيرهم ايضاً. وكسر هذا الاحتكار الطبقة الوسطى والتي اصبحت الطبقة البرجوازية في ما بعد في القرن السابع عشر في اوروبا، حيث حظيت فئة التجار الصغار بمساحة قليلة من حرية الحركة لانعاش الاقتصاد الذي اخذ بالتردي نتيجة سيطرة الاقطاع ورجال الدين فأخذ ابناء هؤلاء التجار بالتعليم والترقي في مناصب الدولة ثم ما لبثوا ان سيطروا على أدوات الانتاج فيها، ولم ينسوا ماضيهم المؤلم، فبرز رجال العصر منهم والفلاسفة الذين انعشوا الحياة العلمية، التي تطورت بالتالي من مجرد دراسات نظرية الى الاتجاه نحو التجريب وتقصي الحقائق باستخدام الأسلوب العلمي في التفكير. والدعوة الى استخدام الحواس في تلقي المعرفة واكتشافها.

### 1-1 نشأة الديمقراطية في أوروبا

بعد الثورة الفرنسية عام ألف وسبعمائة وتسعة وثمانين، اختلت موازين القوى السياسية الأوروبية بعد سيطرة الطبقة البرجوازية الصغيرة وطبقة العامة والتجار على مقاليد الأمور

وتصميمهم على الغاء الطبقية في التصويت على القوانين والذي كان معمولا به حتى نهاية حكم الملك لويس السادس. الثورة الفرنسية وما حملته من مبادىء ديمقراطية تركت اثراً كبيراً على اوساط السياسات المحافظة في اوروبا عامة(3) حيث اخذ المهاجرون الفرنسيون في المانيا وبلجيكا بنشر رسالة الثورة والدعوة الى الحرية وارساء دعائم الديمقراطية، بل والغاء النظام الطبقي المعمول به في اوروبا. هذه التطورات السياسية تركت اثارها على مفهوم التربية الذي طالما حدد معالمه فلاسفة العصر من امثال جان جاك روسو وفولتير وجون فردريك هربرت وفردريك فروبل وغيرهم كثيرون ممن تركوا بصماتهم واضحة على فلسفة التربية الحديثة والواقعية.

على الصعيد الأوروبي ايضاً ازعجت الفتوحات الفرنسية ومغامرات نابليون الدول الاوروبية التي سارعت بعقد مؤتمر فينا عام 1814 والذي كانت من أهم مطالبه اعادة الامراء والملوك واستعادة الأراضي المحتلة؛ كما القضاء على الانظمة الثورية في اوروبا كلها وعدم الثقة بفرنسا مصدر الازعاج في اوروبا. الدول الاوروبية وجدت نفسها في مواجهة القيصر الروسي الذي رأي في نفسه (كقوة عظمى) الوصي على حفظ الأمن الأوروبي في حين رأت بريطانيا خلال المؤتمر انه من الأفضل اقامة توازنات على الساحة الاوروبية دَرْءاً للمخاطر.

من هنا بدأت التحالفات والتكتلات التي كانت بداية لانطلاق الافكار الأوروبية الجديدة نحو التحرر ومفهومه؛ والديمقراطية ومفهومها، اذ اعاد المؤتمر الدول الأوروبية الى عهدها الأول قبل قيام الثورة الفرنسية التي لجَمها المؤتمر وحَدَّ من طموحاتها، وكادت جهود الجمعية الوطنية الفرنسية ان تبوء بالفشل الذريع لولا بقاء الأفكار والآراء الحرة فاعلة حية في ضمائر المثقفين والكتاب وطلبة الجامعات. ففي انتاج ادباء وشعراء المان من امثال غانز وشتراوس وهاين نجد نفحاتٍ من الثورة الفرنسية وافكارها الواضحة تماماً وابدأ ولم يكن هؤلاء يبشرون فقط بمبادىء الثورة وانما ايضاً كانت الدعوة لتوحيد الالمان وتمجيد تاريخهم ولغتهم وحضارتهم(4). وكذلك في ايطاليا ايام غاريبالري وفلاسفة عصره سعوا الى توحيد بلادهم.

كذلك كانت هذه الفترة بداية لاصدار البيان الشيوعي الأول الذي نشره كارل ماركس عام 1848 في بروكسل ويحدد فيه أسس النظرية المادية التاريخية متزامناً مع اصدار كتابه رأس المال الذي يدعو فيه الى الاشتراكية العلمية التي تلغى الملكية الخاصة والطبقية وتعلن المساواة بين الطبقات، وكانت بذلك حرباً على الملاك والاقطاع ورؤوس الأموال والبرجوازية

الصغيرة التي سيطرت على زمام الأمور في فرنسا وغيرها. البيان والدعوة الى الشيوعية تركا اثراً بالغاً على الحياة السياسية والتربوية في اوروبا قاطبة، وفي روسيا بعد الثورة على وجه الخصوص.

ففي بريطانيا على سبيل المثال وبالرغم من اقتصار التنافس السياسي بين الاحزاب الثلاثة الرئيسة، الا ان المبادىء الاشتراكية اخذت طريقها بين صفوف العمال ما دعا (ادم سميث) زعيم الرأسمالية الغربية في بريطانيا الى تحديد مفهوم الدولة وهي فقط المحافظة على النظام الداخلي وانجاز بعض الخدمات والاحتفاظ بقدر من المؤسسات العامة. وتحقيق المصالح الشخصية هو افضل طريقة لتأمين الحاجات الاجتماعية. ويقول: «حينما يتابع الفرد مصالحه بنفسه يتمكن من تسيير مصالح جميع المجتمع بشكل افضل. ومجموع مصالح الأفراد، بعضهم مع بعض يؤول إلى تأمين مصالح المجتمع». بمعنى آخر اصبحت بريطانيا نظاماً اشتراكياً بثوب رأسمالي، إذاً فالمصالح الشخصية المفتوحة والمتنافسة داخل المجتمع افضل طريق لحماية مصالحه. وما الاضراب العام الذي كان العمال على وشك تنفيذه في ظل حكومة المحافظين عام 1921 واضراب عمال مناجم الفحم عام 1926 الا دليلاً على الانتقادات التي كانت توجه الى الحكومات الرأسمالية المتحكمة باسم الديمقراطية. الى ان جاءت السيدة مارجريت ثاشر رئيسة الوزراء في بريطانيا من سنة 1979 الى 1990 وكانت اول امرأة بريطانية تتسلم هذا المنصب، وأول بريطاني في القرن العشرين خدم هذه المدة الطويلة رئيساً للوزراء. (بالطبع حصل العمالي توني بلير على المدة نفسها بالحكم بالرغم من المعارضة الشديدة لسياساته الخارجية وخصوصاً بعد احتلال العراق من قبل دول ما سمي بالتحالف)، وبدأت تاتشر حكمها بتدعيم النظام الرأسمالي مرة اخرى وذلك بالهجوم الشديد على النقابات واجبرت عمال المناجم في البلاد عن التخلي عن إضراب استمر عاماً كاملاً بعد أن رفضت تعديل برامج مجلس الفحم الحجري القومي الخاصة بإغلاق المناجم. كما اقدمت حكومة المحافظين على بيع القطاع الخاص منها خطوط الطيران والاتصالات وصناعة النفط والغاز وبناء السفن واستمرت هذه السياسة حتى عام 1987 فيما عرف بالخصخصة أو التخصيص، وأدت القوانين إلى الحد من قوة نقابات العمال بينما كانت أرباح الشركات في ازدياد مستمر. وفي ذلك العام أيضاً ضمنت تاتشر الفوز في الانتخابات العامة، وأصبحت بذلك أول قائد سياسي بريطاني يكسب ثلاثة انتخابات وطنية متتالية كما قلنا. وفي عام 1985 م وقعت حكومة تاتشر معاهدة مع الصين تعهدت بموجبها الحكومة الصينية بالمحافظة على الاقتصاد الرأسمالي للمستعمرة البريطانية هونج كونج لمدة